

مَظَاهِرُ التَّعْرِيبِ

الأستاذ محمد بن تاويت

أما ابدال تلك الهاء « المخفي » كما يسميها الفرس ، قافا ، فذلك ما كان مطردا في العربية ، كما كان مطردا أيضا ابدالها جيما ، كما في كلمة «برنامج» التي أصبحت برنامج ، وقد عقد سيوييه في كتابه فصلا سماه « باب اطراد الابدال في الفارسية » فذكر من هذا كونه وموزة وكربق وقربق ، الى غير ذلك من الكلمات ، التي يكتفي فيها بهذا الحذاء العربي في نهايتها ، اعني الجيم او القاف .

وطبعا انهم لا يقبلون الحروف التي لا يستعملونها ولا يلقون اجراسها ، فالحرف P ينقلب باء او فاء ، والحرف G ينقلب جيما غالبا ، والحرف V ينقلب واوا في الغالب كذلك .

وبعد هذا لا بد من انسجام في الهيئة والامتداد ، فتبدل بعض الحركات بغيرها او تحذف بعض الحروف التي تتعدى الكلمة طورها في العربية ، ان لم تحذف منها تلك الحروف ، في الغالب أيضا ، ولم يتحموا هذا للاضطرار ، بل اخذوا كلمة «جلاّب» وهي ماء الورد .

وهكذا كانت مشكلة التعريب في القديم ، مسألة التعليم بمدولنا ، ولم تكن مشكلة التعريب كما فهمنا ، فالقضية تهذيب لفظي بوسائل في غاية البساطة .

لما ترجمت العلوم الى العربية ، اتخذ فيها ما كان مهبودا من ذي قبل ، فقيل ، فلسفة في

كثيرا ما قلنا ان التعريب كان منصبا على الالفاظ ، بينما التعريب الآن منصب على المعاني فما معنى هذا الكلام ؟

معناه ان العربي ، كان اذا جلب كلمة او جلبت اليه ، يستغني بالباسها لباسه العربي ولو بغطاء الراس مثلا او الحذاء

جاءته كلمة « كروان » بمعنى انقافلة ، فقال فيها قروان ، وغطى رأسها بالالف واللام فأصبحت القروان او القيروان ، وبذلك صارت الكلمة تتمتع بكل الحقوق التي تتمتع بها الكلمة العربية في اعرابها ، فلا تمنع من الصرف لعلة المعجمة ، لانها قد ارتفعت عنها بهذا العقال ، الذي هو هنا الالف واللام ، كما حدث في الهند والصين والروم والترك .

سمع النبي عليه الصلاة والسلام ، من سلمان الفارسي ، كلمة خندق فاستفسره عن معناها ، وهي اسم مفعول ، من كندن الفارسي بمعنى الحفر ، فكانت كنده ، وعربت بان ابدلت الهاء التي لا تنطق قافا ، فصارت خندق ، فتقبلها النبي ولم يأنف من استعمالها بل اشتق منها خندقوا ، فسميت الغزوة بغزوة الخندق .

ولعل الكاف كانت في النطق تميل الى الخاء ، كما هي في اليونانية والعبرية ، وهي ما تسمى عند مقرئي المغرب بالكاف الموسوس ، ولهذا نطقت خندق .

كل ما فى طاقتها من قوة فهل العربية قادرة على هذا ؟

نعم ، هي قادرة . لو مكنها من قدرتها ، ونفسها بطول الانفاس ، ان لم نكتبه فيها .

والعربية ، الى جانب احتمالها للالفاظ ، تحتل كذلك ما نطلبه من معان فيها ، ان كلماتها لا تنفذ . بما فيها من اشتقاق وخيالها بحمد الله خيال خصب ، يسعها بالتشبيه وما ينشأ عنه من استعارات ، ويسعها بهذا التداعي الذى تتولد منه الكنايات ، ولا يبخل عليها استعمالها العتيق ، بهذه المجازات المرسله ، ثم النحت .

لقد تقدمت فى الاشتقاق ، كلمة « خندقوا » من الخندق ، ولنا ان نزيد على هذه الصيغة كل الصيغ المعروفة فى المادة العربية نفسها ، فتسعنا فى الاعمال بأنواعها واوضاعها ، وتسعنا فى الصفات بأنواعها كذلك واوضاعها ، وتسعنا فى اسماء الزمان والمكان والمصادر على اختلافها ، كما تسعنا الكلمة العربية ، عند الاحتياج الى نسلها من اولاد واحفاد

هذا الاشتقاق الطليق ، لا نجده فى غير العربية ونجد امثلة من اليواقي فى غيرها ، مثل ما نجد فى الفارسية والتركية والفرنسية ، ازاء البطاطا ، حيث شبهتها جميعا بالتفاح الذى اضافته الى الارض ، فقالت الفارسية « سيب زمين » والتركية « ير الماسي » والفرنسية **Pomme de terre**

وسمت الاسبانية ملابس العمال ، ذات القطعة الواحدة « Mono » اي قرد ، كما سمت الالة التى ترفع بها جوانب السيارة باسم « Gato » اي الهر ، لانها تشب مخلصها فى جانب السيارة ولم تأنف ان تسمى بالبق « Chinche » المسمرات التى تثبت الورق ونحوه .

وقالت الانجليزية للقطار السائر تحت الارض **Underground** اي تحت الارض ، مجازا مرسلًا ، كما استعمل هذا المجاز المرسل فى نحو « سندويتش » « Sandwich » و« كرافاط » « Cravate » وكان الاصل فى هذين انهما اسمان لرجلين استعملهما .

وأمن الالمان ، كما نعمن نحن فى الاشياء لنستخرج اسماءها ، بدقة وطبق الاصل ، فسموا « الهيدروجين » باسم **Wasserstoff**

Philosophia و **Philosophos** وقيل ، فاطيفورية **Kategoria** والسفسطة **Sofisikae** وايساغوجي **Isagoge** وغير ذلك من الكلمات اليونانية الاصل ، ولم تجد العربية الفسيحة الصدر فى هذا حرجا او احراجا ، وقد وجدنا الابهرى من رجال القرن السابع يؤلف فى المنطق رسالته « ايساغوجي »

Taos	كما عربوا الطوس من
Zone	والزنار من
Kassitoros	والقزديسر من
Ibrizón	والابريز من
Diáblos	وابليس من
Thériaka	والترياق من
Chartés	والقرطاس من
Genos	والجنس من
Esthlós	والاثير من
Gramaatika	والاجرومية من
Asfaltos	والزفت من
Karyofyllon	والقرنفل من
Gypsos	والجبص من
Staflinos	واصفلينة من
Sotolos	والاسطول من
Astron-lambauo	واسطرلاب من
Drachmé	والدرهم من
Kados	والقادوس من
Atlas	والاطلس من

ولا شك ان كلمات من هذه عرفتها الجاهلية ، كالقرنفل والدرهم وابليس ، ولكن معظمها لم يعرف الا عند الترجمة ، ولا يعزب عن البال ، ان كلمة الاجرومية ، ليست منسوبة الى ابن آجروم المغربي ، كما يتوهم ، فان القضية اتفافية ، وكثيرا ما يقع هذا الاتفاق فى اللغات .

هذه امثلة بسيطة ، اذا كانت الحياة على نمط من البساطة ، اما الان فقد تعقدت الحياة وتعاقبت المخترعات وازدحمت فى هذه الدنيا المخلوقات ، فأصبحت وكأنها دار تسكنها عائلة واحدة ، لا بد من التعارف التام فيها والاتحاد فى مدلولاتها ومزاولة كل فرد منها ما يزاوله الآخر

فصارت مسؤولية اللغة شاقة ومتطلباتها كثيرة ، وعليها ان تقوم بأعباء ذلك وعليها ان تستنفد

يتصل بالوصف ، وتسجيل خطوات اللفه . وموقفها من طبيعة الأشياء ، فكان منها بعض اللمحات عن موضوعنا هذا ، مثل « باب الحكاية التي لا تغير فيها الاسماء عن حالها » فالتركيب اذن معروف بين كلمتين عند النحاة ، قديما وحديثا .

اما النحت بهذا الاسم قليلا ما يتعرض له النحويون . ومن هؤلاء الخضري ، اذ يقول فيه « وهو ان يختصر من كلمتين فكثر ، كلمة واحدة ، ولا يشترط فيه حفظ الكلمة الاولى بتمامها بالاستقراء ، خلافا لبعضهم ، ولا الاخذ من كل الكلمات ، ولا موافقة الحركات والسكنات » .

وبهذا نعم كلمة النحت في تركيب الكلمة من كلمتين وفي اختصار كلمة من كلمتين أو أكثر ، والنوعان معا موجودان في العربية ، وفي جل اللغات غيرها ، وان كان بعض منها يعيل الى التركيب اكثر مما يعيل الى الاختصار ، على عكس العربية . كما سنرى :

تقول العربية « البسمة » و « الحمدلة » و « السجدة » و « الحوقلة » و « السمعة » ، من قولنا : « بسم الله » و « الحمد لله » و « سبحان الله » و « لا حول ولا قوة الا بالله » و « السلام عليكم » ، كما تقول « الهيلة » و « الحيلة » . ويزعم ابن فارس ان كل ما زاد على ثلاثة ففيه نحت وتقول « التحييد » كما تقول غير هذا من جمل عديدة ، ونشتق من ذلك الافعال وغيرها مما يشتق من كل مصدر ، وهذا أيضا مما تمتاز به العربية وتفضل على غيرها ، فان باقى اللغات ، تستعمل هذا النحت في حالة معينة ، تستوجب منها هذه العملية ، وتقف عند هذا الحد ولا تتعداه غالبا فهي في ذلك تلتزم ما التزم - غالبا - في اسماء الافعال والاصوات من العربية ، وهذا الباب أيضا ، مما توسعت فيه العربية ، بخلاف غيرها .

مثلا ، نجد الالمانية تمنع في حقائق الأشياء ، وتحاول ، مثلنا ، ما أمكنتها الحيلة ، ان تدخل المعاني الى لفتها ولا تدخل اليها الالفاظ ، سواء منها ما كان مفردا وما كان مركبا ، فمن المفردات ، نجد كلمة التاريخ ، غير مستعملة عندها ، كما هي في باقى اللغات الاوربية ، بل اشتقت لها من مادتها الالمانية كلمة سرد Geschichte ولكن المؤرخ Historiker والوصف historisch فهي اذن لم تبق حرة طليقة وكذا الامر في المركبات ،

فركبوا الاسم من كلمتين Stoff اي جوهر ، و Wasser اي ماء ، فصار الاسم هكذا ، الجوهر المائي ، او جوهر الماء (كما في الفارسية والتركية مولد الماء)

وقد كلفهم هذا الاعتزاز كثيرا من العنت . اضطروا معه ، الى تركيب اسم لسمى واحد من كلمتين أو كلمات ، في بعض الاحيان ، فلا يكتفون غالبا بالنحت ، الذي نجده في جل اللغات ، ومنها العربية .

وقيل ان ناتي بأمثلة من العربية لهذا النحت . نرى ان تقف وقفة قصيرة ، عند أصله اللغوي . .

فالنحت أصله ، النشر والشر والقطع في الصلب من المواد ، كالخشب والحجر ونحوهما . وقد يكون هذا من كلمتين ، كما ينحت النجار ، خشبتين ويجعلهما قطعة واحدة ، كما يكون من قطعة واحدة ، وهو الاصل ، كالنحيتة التي تنحت من جذم شجرة ، على هيئة الجب للنحل ، وهذه النحيتة هي المعروفة عندنا باسم الجباح ، ومن هذا قول الاعشى :

الست منتبيا عن نحت اثلثنا

ولست ضائرها ما اطت الابل

اما النحت في الحجر ، فمنه قوله تعالى « وتنتحون من الجبال بيوتا فريين »

هذا ما يتعلق ، بأصل المادة من اللفه .

واما معنى النحت في الاصطلاح ، فهو صوغ كلمة من كلمتين فكثر .

ويدخل في هذا التعريف ، تركيب كلمة من كلمتين ، مما تناوله النحاة ، في عدة ابواب من كتبهم . وفي الالفية نجد التعرض للتركيب المزجي ، في باب العلم ، وباب ما لا يتصرف ، وباب النسب ، كما نجد الاشارة الى المركبات عامة في ابواب غير هذه .

وجملة القول ان النحو تعرض للمركبات من الاسماء الا ان تعرضه هذا كان لجرد الاحكام النحوية والصرفية الواجب تطبيقها عليها في الجملة .

نعم ان « الكتاب » لسبويه لم يقف عند تطبيق الاحكام ، بل وقف عدة وقفات ، كان منها ما

فتقدم انها سمت «الهيدروجين» باسم اصل الماء او جوهر الماء ، هكذا Wasserstoff ماء Wasser ومادة Stoff مركبين وهي في هذا قد استعانت بأصل الكلمة اليونانية hudór أي ماء ، و gen أي اصل من مصدر genna-ein فحلت مشكلتها ووقفت عند هذا الحد بالرغم من أن لها في لغتها روافد عديدة ، حيث انها تحتوي على عدة لهجات تغنيها عن غيرها غالبا .

ومهما يكن ، فاننا بصدد العربية ، وموقفها من عملية النحت الذي عرفه ابن فارس بقوله « تؤخذ كلمتان وتنحت منها كلمة آخذة منهما جميعا» فقد رأينا انها تجمع بين الطريقتين فيه ، والقدمى حاولوا احصاء المنحوت في العربية ، فوقف بعضهم عند بضعة عشر من امثله ، وآخرون لم يتعدوا او لم يصابوا بها الى المائة .

غير أن ابن فارس جرى بعملية النحت اشواطاً قارب بها نحو الألف ، حيث يرى أن أكثر الرباعي والخماسي منحوت من كلمتين .

والواقع أن هذا العدد لا يعيننا بقدر ما يمكننا من الحرية في عملية النحت ، الذي أصبحت الحياة المعقدة تاج علينا فيه ، وأصبحت الاجناس البشرية، تتقارب فيما بينها وتكون لها مجتمعات على مستوى الدول عامة او على مستوى جماعة منها او على فكرة من الافكار ، بعد المخترعات العديدة ، التي قد تتطلب مئات الاشياء وآلاف الأدوات ، وكل ذلك لا بد من تسميته مركبا بعد أن كان مسمى مفككا او على انفراد اجزائه ، فكان الاتوموبيل والتيليفون والتلفزيون ثم التلفزيون والنيلون ، هذه الاشياء تعد من أبسط ما واجهنا به النحت ، كما واجهنا بالديموقراطية والديكتاتورية والنازية ونحوها ، وكانت اليونسكو والمخترعات الكيماوية مما وجدت لها حلا في اللغات ، فكيف بنا الآن أمام المخترعات الفضائية التي تتألف من مئات الاشياء وآلافها ؟

وعلى كل حال فاننا من استعراضنا للوسائل التي تستعملها العربية في تعبيرها ، وجدنا منها ما استعمل ترفا ، كالتشبيه والمجاز عموما وكالكناية ، وما استعمل بداعي الحاجة ، كالاضافة والنسب والاشتقاق الذي يطبق على هذه جميعا ، كما يطبق على غيرها فيما سنرى وعلى العموم فقد دخلت الاولى في منطقة تجميل الكلام ، وهي « فن البلاغة » ، ودخلت الباقية في ضروريات الكلام ،

ففي في التصريف والنحو، وضربنا لذلك امثلة باللغات الاجنبية ، وهي تعم الجميع .

ومن تلك الامثلة ، ادركنا انه لا حدود فاصلة تامة بين النوعين المذكورين ، فقد تدعو الضرورة، فلا تجد من يسعفها الا وسائل الترف ، وقد لا تكون هناك ضرورة ، ومع هذا تستعمل وسائلها . وبذلك ينشأ المترادف ، كما ينشأ بالتلف والمغرب وتعدد اللهجات . ومن المفيد أن تأتي ببعض الامثلة التي هي في العربية مقابلة لتلك التي ذكرناها من غيرها .

فمن الاضافة وجدنا قوس قزح واكسير الحياة ، وحب العزيز في مصر ، وحب الملوك في المغرب ، ودار الصنعة ، وبيت المال ، ودار الثقافة بالمغرب . ومن النسب : اليماني والهندي في القصص ، وفي معناه الجديد في عاميتنا ، كالكومية والوزانية فيها ، والمهلبية بالشرق والمنصورية بالمغرب ومن الاشتقاق ، كالثشيرة ، بمعنى ما يعرف الآن باسم « القاتورة » ويصح ان نضع فيها « النغالة » أيضا ، وكتاهما للمفعولية والاخيرة « النفولة » . ومن الاستعارة كيد الدهر ، ورأس الكلام ، ومرآة الحياة ، وشباب الزمان ، ولحن السعادة ، ودمدمة الشقاوة ، و « طعام الاثيم » و « العزيز الكريم » تهكما . ومن المجاز المرسل ، شرب الكأس ، (ولا بأس بالجرسى Jersey) والتكلم مع الدار ، وجعل الاصابع في الاذن وعصر الخمر ، والبرتقال للفاكهة المعروفة، ومن الكناية أهل الحجر والمدر والوبر، وبيت الماء، وأهل الدار، وعريض القفا، للحمار، كما في حديث من فهم الخيط الابيض والاسود على الحقيقة ، وريق النحل ، والتكفف وخفة اليد . . . اما التشبيه ، على ما هو عليه ، فلا وجود له ، فيما نعلم بالعربية ، ولكن خليل التركي استعمله كثيرا ، في مختصره المعروف ، وقلما يخلو منه باب من ابوابه ، وهذه امثلة قليلة من ذلك : « بكاعزى » في اليمين ، « في كسبيل انله » بالنذر « من كقاعد » في الجهاد ، « في كافرقيقة » بالنكاح « لا بكاعتراض » في الخيار منه ، « من كابل » في الصداق ، « عند كامها » في نكاح التفويض ، « علي كجدار » في وليمة البناء بالعروس ، « ولو بكتقويم » في الطلاق ، « وان بكاحرام » في الارتجاع ، و « بكمشيئتها » في الظهار ، و « وفي كالثلاثة » - الايام ، وفي التطوع او غيره ان خرج - « لكرباط » فهذا مثالان وردا في رفع زوجة المفقود، و«نبد بكدباء»

في الطعام الباح ، وهو كثير جدا . ويكلف الشراح تأويلا يدعونه بحذف المنعوت والواقع ، ان الصنيع التركي ، هو الذي شجع هذا التركي العظيم على استعماله ، المذكور ، وهو الذي جعل شوقي التركي يقول :

ودخلت في ليلين فرحك والدجى
ولثمت كالصبح المنور فساك

فهذا التشبيه « كالمنور » هو المفعول به على الحقيقة ، كما ان ما قام مقامه ، في قوله : « ما يشبه الاحلام » هو الفاعل في البيت :

يا جارة الوادي طربت وعادني
« ما يشبه الاحلام » من ذكراك

وكذلك نجد لشوقي هذا الصنيع في نحو قوله :

ولا ينيبك عن خلق الليالي
كمن فقد الأحبة والصحابا

فقد جعل الفاعل هنا ، المشبه به أداة التشبيه ، ولا شك انه نظر في ذلك الى قوله تعالى : « ولا ينبئك مثل خبير » .

فالفاعل في الواقع المشبه به أداة التشبيه « مثل » اذ هي في المعنى لا تستقل بنفسها ، وان كانت في الصناعة فاعلا بنفسها ، مما اهلها في التركيب العربي ، لما لم تؤهل له كاف التشبيه .

ولكن غير شوقي و خليل ، ان احتاج الى هذا التشبيه ، احتال عليه ، فقال : « ذهب الاصيل » و « لجين الماء » و « حمار الشيخ » ونحو ذلك ، مما اضيف فيه المشبه الى المشبه ، وقد استعمله جدا ، ابن خفاجة ، زيادة على الصورتين الاولييين خصوصا في قصيدة له مطلعها :

يا رب ليل بته
وكانه من وصف شعرك

ومن الوسائل التي تتوسع بها اللغات في دلالاتها ، وسيلة التعميم والتخصيص ، فالخاص يستعمل في المعنى العام والعام يستعمل في المعنى الخاص .

وقد تنبه الاصوليون وعلى رأسهم الشافعي الى هذا في النصوص الشرعية بصفة خاصة ، الا انهم توسعوا فيه ، حيث كان قصدهم مناط الاحكام ، ولم

يكن مناط الدلالات ، بمعنى انهم اقرؤا بعض العمومات في دلالاتها اللغوية وان خصصوها في احكامها الفقهية ، فجاءتها هذه الخصوصية بنحو الاستثناء الذي اجاز فيه ابو حنيفة وغيره ان يتأخر عن المستثنى منه بمدة السنوات ، او نحو الصفات التي تقصر الاحكام على موصوفاتها ، وهكذا مما يطول الكلام فيه ، وحسبنا ان نجد له نماذج في باب اليمين بمختصر خليل عند قوله « وخصمت نية الحالف وقيدت » الى آخر الباب وفيه ايضا تعميم للخصوص والعام الذي اريد به الخصوص وهو الغالب .

ثم كان انبلاغيون والمناطقة يعالجون هذا النوع من التوسع ، فالبلاغيون حينما امعنوا في المجازات المرسلة وجدوا من نماذج ما يتصل بهذا الجاز ، لدرجة ان نشأ الخلاف بين الاصوليين فيه ، هل هو جميعا من قبيل المجاز هذا ؟ والمناطقة نظروا اليه وهو يقوم بمهمة الدلالة اللغوية ، فكان تناولهم فقهاء لغويا في الصميم ، كما نجد في السلم اذ يقول :

دلالة اللفظ على ما وافقه
يدعونها دلالة المطابقة
وجزئه تضمننا وما لزم
فهو التزام ان بعقل اتزم

وقد توسع فقه اللغة الحديث في هذه الدلالات وساط عليها الاستقراء التاريخي والتطور الاجتماعي والجنسي وهي على كل حال خاضعة لهذا الحصر المنطقي .

ومهما يكن فالعربية عرفت في الجاهلية هذه النماذج التي تتراوح بين التخصيص والتعميم ، وتوسع فيها الاسلام فالشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والطهارة والوضوء والكفر والايمان والشرك والجهاد والتكبير والتحميد والركوع والسجود وغير هذه من مئات الكلمات التي جردت دلالاتها في الدين الجديد ، كلها من هذا القبيل .

وقد الف الراغب الاصفهاني كتابه القيم « مفردات غريب القرآن » فأرجع هذه المفردات الى عموماتها او خصوصاتها في اصل الاستعمال اللغوي ، الذي لم يقطع الاستعمال الجديد في الاسلام صلاته بالقديم فيها .

فهذه الصلاة والزكاة والطهارة ، نجدها في آية واحدة تمد يدها الى عمومها فتقول « خذ من أموالهم

صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل عليهم ، ان صلواتك سكن لهم » .

والكفر نجده يستعمل في معناه من الستر ، فعم الزراع لسترهم البدور ، ولهذا وردت الآية « كمثل غيث أعجب الكفار نباته » أي الزراع ، ومن هذا الستر تكفير السيئات الذي ورد منه في القرآن عشرات من الآيات ، مثل « كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم » ومثل « ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا » ومن العجيب ان نجد هذا الستر في الكلمة باللغات الأوروبية ، في مثل Cover الانجليزي و Cubrir الإسباني ونحو ذلك في اللغات الآخذة من اللاتينية كالإيطالية والرومانية وغيرهما .

ومن الكلمات التي صارت تنجح الى التخصص كلمة الانتقاد ، فهي كذلك في العربية وكذلك أختها Critic في غيرها وهكذا العربية استفادت من التخصص في عصرنا ، كما نجد ذلك في تسمياتها الطائرة والدبابة والفواصة والعمامة والمدمرة والمدفع والحافلة والشاحنة والجرار والجراف والسيارة والدراجة والاسعاف والامن والنظام والاستقرار والمخبر والساعي والنجدة والانتقاد والامين والشوكة والسكينة ، وغير هذه مما يجد باطراد مستمر ، وقد يشتق من بعض هذه ، كالطيار والمطار ، كما اشتق من المطبعة الطباعة وغيرها .

فهذه كلها معان جديدة ولدتها أم التخصص لهذه العربية ، ولا أفهم مطلقا من يقولون ان دلالات الالفاظ في العربية لم يطرا عليها تغيير فهذه القولة تسيء الى العربية ولا تشيد بفضلها .

بل ان التطور في الدلالة ، حاصل حتى في هذا التخصص . وهذه الكلمة نفسها ، وقد جاءت عفوا في عبارتنا تطورت في مدلولها عما كانت عليه بالامس ، فكلمة « المتخصص » الآن لها مدلول لم يكن يعرف على ما هو عليه عندنا ، فهذا متخصص في فقه اللغة العام وهذا في فقه اللغة الخاص ، بالمقارنات او الاشتقاقات او التاريخيات او ما الى ذلك من نوع الدراسات اللغوية وهذا متخصص في امراض الكلى وآخر في لين العظام وآخر في الجهاز الهضمي او البولي او السمعي او التنفسي او ما الى ذلك من الاجهزة الكثيرة ، زيادة على التخصص في الاسنان والعيون ، مما اصبح مستقلا بنفسه تمام الاستقلال ، وسيأتي يوم يتخصص فيه طبيب الاسنان بالفك الاعلى ، وآخر بالفك الاسفل ، وطبيب العيون ، بالعين اليمنى وآخر بالعين اليسرى ، وطبيب الآن كذلك .

نعود الى هذا العام الذي خصص في غير العربية ، لنقارن بين طبيعة المتخصص في العربية والمتخصص في غيرها فكلمة Avion في الإسبانية وغيرها ، وكلمة Aviación فيها وفي غيرها ، تقابلان ما تخصص في العربية بالطائرة والمطار ، بضم الميم ، كما سترى .

وهنا تقف غير العربية ، فليس فيها طيار مشتق من Aviar بل فيها Piloto ونحوها ، بما لا علاقة لها بمادة الطيران ، بل هو من Pilotear العام في الجو والبحر والارض ، وان كان قد اشتق له فيما مضى Aviador في الإسبانية، ونحوها ، و Aviator في الإنجليزية كذلك ، الا ان الاستعمال الآن جنح الى المعروف بكونه يعم القائد والمرشد في السماء والارض والبحار ، وقد بدأت العربية تجاري عولاء في هذا الانحراف عن المادة الاصلية ، فصارت تسمي الطيار ، ربان الطائرة او ملاحها . ولا لزوم لهذه المجازة ، خصوصا وانها تستبدل بالكلمة الواحدة ، وهي الطيار ، كلمتين ، وهما ربان الطائرة او ملاحها ، ، زيادة على ان العربية لها فضل السبق في خلق كلمة طيار للأدمي ، وقد مضى عليها اربعة عشر قرنا ، منذ لقب بها الشهيد جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه .

نكتفي بهذا المثال ، مما هو في غير العربية من العام المخصص ، ونوجه الى مقابله ، الخاص المعم .

فمن ذلك كلمة الرائد ، فقد اشتق هذا من الورد الى الماء خاصة ، ثم تمم بالاتيان الى كل مطلوب ، وكان الرائد الذي يتقدم قومه في السفر ليهديهم الطريق ، ومنه الرائد لا يكذب قومه ، بل صار الورد عاما في كل آت مادي او معنوي حقيقي او مجازي ، مثل ورد فلان وورد الخبر علينا وورد الماء والتيار الكهربائي او الضوء ان اردنا .

ومن ذلك كلمة الاستنباط ، فقد كانت خاصة بعمل النبط ، وهو استخراجهم للمياه ، الذي مهروا فيه ، كالفيلاليين فيما مضى عندنا ، ثم صار كل استخراج للمياه يسمى استنباطا ، ولو لم يكن المستخرج نبطيا . ثم زاد التعميم في كل استخراج للمياه وغيرها ثم تعدى هذا الى المعنويات ، ولازمها حتى اصبح او كاد يتخصص بها فيقع له ما سيقع لرواد الفضاء ، فيطلق عليهم رواد بدون هذا القيد .

ومن ذلك كلمة ماهية التي دخلت الى العربية من « ماه » القمر في الفارسية ، وهي بمعنى المرتب

الشهري ، ثم أصبحت تطلق على كل مرتب ، شهريا كان أم غير ذلك .

وتظيره كلمة مشهورة التي دخلت الفارسية من العربية بمعنى المرتب الشهري ثم صارت تطلق على كل مرتب شهريا كان أم غير شهري .

ومن ذلك كلمة كفل ، وقد جاءت الي عفوا ، فوجدت أصلها خاصا بالكساء الذي يوضع على ظهر البعير فيعقد طرفاه ويلقى مقدمه على كاهل البعير ومؤخره على عجزه ، فالاكفال غير الاحلاس ، كما في الامثال ، ثم قيل تكفل الحمار ، اذا حلق ثوبا على ظهره وركبه ، ثم اطلق على كل اشتغال مادي ، ثم معنوي كالنفقة والقيام بالاشياء عامة ومضاعفة الجزاء ، وصارت الكلمة تجنح الى المعنويات فيقال تكفل فلان بالامر ، اذا تعهد القيام به .

وهكذا تتعمم الكلمات في مدلولاتها التي كانت خاصة ، بالكثرة التي جعلت اللغويين ، يدعون أن الكلمات في نشأتها كانت خاصة ، وما تعممت الا اخيرا ، حيث ارتقى الانسان ، فأدرك الكليات بعد ادراكه للجزئيات ، وهو ما أدركه المناطقة عموما ، فقال السلم مثلا :

من اوليات مشاهدات
مجريات متواترات

الى آخر اليقينيات التي نشأت من المشاهدات هذه امثلة من العربية ، اما غيرها ، فكلمة Arrive الانجليزية ، كان معناها الوصول الى River أي النهر ، ثم صار معناها الوصول مطلقا وكلمة Salary كان معناها النقود التي تصرف لشراء الملح من كلمة Sal ثم صار معناها ما يدفع للاجير او الموظف عامة وصارت تجنح الى المرتب الشهري وهكذا نجد في عدد من اللغات يصبح الخاص عاما ثم تدور الدائرة فيصبح هذا العام خاصا في معنى جديد غالبا واللغة كائن حي نشيط

ومن هذه الوسائل التي توسلت بها العربية في توسعها او يمكن أن تتوسل بها الاشتقاق من الزمان والمكان فالزمان ، كالصباح والغداة والمساء والعشاء والضحى والقائلة والليل

فمن الصباح اشتقت العربية اصبح ونحوه ، كما قال الافوه الاودي :

أصبحت من بعد لون واحد
وهو لونان وفي ذلك اعتبار
ومن المساء ، كذلك ، مما نجده في قول ابي تمام :

وما كان الا مال من قل ماله
وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر
ومن الغداة كما في قول الفند الزماني :

مشينا مشية الليث
غدا والليث غضبان

ومن الضحى ، قول عمر بن الخطاب : « اضحوا
عباد الله » اي صلوا بالضحى
ومن العشاء ، قول الحطيئة :

متى تآته تعشو الى ضوء ناره
تجد خير نار عندها خير موقد
فمعنى تعشو تراها ليلا وتقصدها فيه عشاء .
ومن القائلة ، الحديث « قيلوا فان
الشياطين لا تقيل » .

ومن الليل ، قول ابن حبوس الغاسي :

والكل في علم الامام مقصر
حسب المبرز منهم أن ليلا

وقالوا كذلك : ايل فلان اذا دخل في الليل ، والليل الكروان ، لتفريده ليلا ، ولهذا اسمه بالانجليزية Nightingale ففيها هذا الاشتقاق من الليل كذلك ، كما اشتقت من الصباح Morning واشتقت الاسبانية من الصبح Madrugar فالاول من Morn والثاني من Madruga التي يرادفها Alba وهو اول ضوء للنهار ، كما اشتقت الانجليزية من المساء ايضا Evening فهو مشتق من Eve اي انتصاف النهار ، ونحوه موجود في الاسبانية ، وان كانت قد جنحت به الى معنى ما تؤديه « ظل » في العربية ، وهو تطور في الدلالة ، من القيد الى الاطلاق ، او من التخصيص الى التعميم ، كما حدث في العربية ، للانفعال السابقة ، أصبح وأمسى وأضحى وحتى غدا ايضا ، فصارت من الافعال الناقصة ، وهي في تلك الامثلة السابقة افعال تامة ، والا لما دخلت واو الحال على ما ندعيه خبرا في غيرها ، كما رأينا ، وكما في قول الفند المذكور :

فلما صرح الشر

فأمسى وهو عريان

بل ان « ليس » التي ادعي فيها النقصان دائما،
وردت تامة ، كما في قول النابغة :
إذا ذهب العتاب فليس حب

ويبقى الحب ما بقي العتاب
وهذا مبحث آخر ستناوله عند تناولنا للفة
في تراكيبها ، اما الآن فنحن بصدد مفرداتها

ومن الاستعانة بالزمان ، قولنا الغداء . ل طعام
الغداة ، والعشاء ل طعام العشاء

ثانيا - المكان ، نقول : انجد فلان صار في
نجد

واسهل صار في سهل

وأجبل صار في جبل ، قال ابن حبوس الفاسي :

وتفجرت عين النباهة بعدما

قد كان خاطرها اكل وأجبلًا

اي انقطع ، والاصل فيه سعد في الجبال
وأوقل فيها ، فانقطع خبره ، بل الوقل نفسه من
هذا ، فهو الحجارة ، وبذلك يكون من قبيل المكان

وأنهم صار في تهامة

وأيمن صار في اليمن ، وكذلك ، يامن

وعرض صار في العروض ، وهي مكة
والمدينة ، والطريق في عرض الجبل ، قال عبد
يفسوث :

فيا راكبا اما عرضت قبلها

ندامي من نجران الا تلاقيا

وهكذا استفادت العربية من الزمان ، كما
استفادت أيضا من المكان ، فقالت أعرق وبدأ وتمدن
وغار وأبلد وأعمن وأشام وأجنب وأشمل وشرق
وغرب .

فمن نجد ، وغور قول الاعشى :

نبي يبرى ما لا تسرون وذكره

أغار لعمري في البلاد وأنجدا

ومن العراق وتهامة وعمان ونجد أيضا ، قول
المزق العبدي :

فان تهموا أنجد خلافا عليكم

وان تغمنا مستحقي الحرب أعرق

ومن الشام ، قول الشاعر :

سمعت بنا قيل الوشاة فأصبحت

صرمت جبالك في الخليط المشم

ومن البداوة ، الحديث الشريف « من بدا
جفا » أي من سكن البادية اكتسب منها الجفاء

ومن المدينة ، قولهم تمدن فلان ، اذا سكن
المدينة .

ومن البلد ، قولهم أبلد بالمكان اتخذه بلدا

ومن الجنوب ، قولهم اجنب القوم ، اذا دخلوا
في الجنوب

ومن الشمال ، قولهم : أشملوا ، اي دخلوا
الشمال .

ومن الشرق ، قولهم : شرق فلان ، اذا اخذ
في ناحية الشرق .

ومن الغرب ، قولهم : غرب ، اذا اخذ في ناحية
الغرب ، قال الشاعر فيهما :

سارت مغربة وسرت مشرقا

شتان بين مشرق ومغرب

وبهذا نرى العربية قد استفادت من المكان ،
استفادتها من الزمان استفادة واسعة ، وهو ما لا نجده
في غيرها أيضا كذلك فقد نجد في الاسبانية من
الاندلس Andaluzada و Andalucismo
فالكلمة الاولى يراد بها المبالغات الاندلسية ، والثانية
اللهجة كذلك ومن قشطيلية Castilianizar ،
والمراد بها الاسلوب المنسوب لكستيليا بلقن للاجانب
عنها ، فالاشتقاق اذن حصل بعد النسبة لها ولا تكاد
نجد هذا الاشتقاق في غير هاتين الناحيتين ، وطبعاً
لا يتوقع ان يوجد شيء من ذلك في الانجليزية التي
تتحرك في اشتقاقها بمساعدة فعل الكينونة ، ان لم
يكن هناك مصدر تعتمد عليه مباشرة ، وكذلك
الشان في الالمانية والفارسية والتركية .

نعم ، قد سبق ان « Arrive » مأخوذ من
« River » ولكن قواميسهم في Etymology تذكر ان
الانجليز أخذوا هذه من الفرنسية بعد اشتقاق الكلمة
فيها

حقيقة ان الاسبانية اشتقت من الطريق فقالت:
Caminar من Camino ولكن الملاحظ في هذه
الحركة اكثر من الصيرورة فيه ، ولهذا لم تذكره

« الطويلة » باسم طمطم Tomtom وتسمية لعبة « البيكينجوك Ping-pong و Croquet ربما تكون كلمة « التراكاتور » من هذا القبيل . وعلى فرض انها مأخوذة من اللاتينية ، فان هذه قد حاكت الصوت . فيما سمت به قديما ، وقلدت في ذلك حديثا . قل لي طالب اسرائيلي ، كان يحضر علي درس الفارسية . اني ادركت تماما معنى كلمة « كرفتن » اي القبض والاستيلاء ، ولا شك ان ذلك كان في خفة وانتشال ، وهذا طبعا يفهمه الاسرائيلي اكثر من غيره .

الاساطير ، فنسمي طائرة من الطائرات ، مثلا ، باسم العنقاء ، او آفة هتلة باسم الفول ، وقد فعلت هذا انجلترا فسمت الآلة الرافعة للانتقال العظيمة باسم Bogey ومعناه الفول ، واخيرا وجدنا اميركا تلجئ الى اساطير اليونان ، فتسمي باسم اله الشمس وغيرها Apollo ثم تستعين بالارقام بعد ، فيكون أبولو واحد واثنين الى خمسة عشر ، وهكذا دواليك ، وهي التي سمت طائرتها المدمرة Phantom اي ببعع .

وقد يلعب الخيال ، فيصور الاشياء وهي لا ترى ، بصورة ما ، كدائرة السوء ، او يضي عليها لونا ، كالحمي الصفراء والاسودين للتمر والماء او يجعلها تصيب كنداء المجهول ، وهذا في الواقع من صنيع الشعراء ، واصحاب الخيال الخصب ، ولكنه اذا ما شعر صار يؤدي ما تؤديه الاسماء المعتادة فمن منا يجهد فهمه في ادراك « صوت الضمير » و « دائرة السوء » التي جاءت في القرآن الكريم ، وادركتها الافهام بلا كلفة او مشقة ، كما ادركت « رؤوس الشياطين » وقد جاءت في القرآن ، وادركت « انياب اغوال » في شعر امرئ القيس :

ايقتلني والمشرقي مضاجعي
ومسنونة زرق. كانياب اغوال

وبعد هذا كله فللغة ان تخترع ، وهذا من علامة حيوتها واستجابتها الى كل ما يجد في الحياة ومتطلباتها ، وقد جاء الاسلام بجديد فاحتاجت اللغة الى جديد في اللفظ ، فاخترعت الفاظا قرآنية ، لم يكن العرب يعرفونها ، وخصوصا فيما يتصل بالآخرة من تصوير احوالها وعذابها او نعيم جناتها ، كالسلسيل ، والصعود ، وسقر ، وسجين ،

في هذه الظروف المكانية ، وبعبارة ان الطريق ، كان بعد الطروق ، فهو مأخوذ من الفعل لا الفعل مأخوذ منه ، ومادة الفعل اوسع منه فهو فعيل من الطروق بمعنى مفعول منه .

وبالجملة فالزمان والمكان لهما أهمية خاصة في العربية ، ولذلك الف المرزوقي الاصفهاني من رجال القرن الرابع واول الخامس كتابه القيم « الازمنة والامكنة » وكان استاذنا المستشرق Paul Kraus اذا سال احدا عن هذا الكتاب ، فاجاب بأنه لا يعرفه ، ينحى عنه بالتجهيل والتقريع . لان مثل هذا الكتاب ، يجب ان يكون كل طالب في العربية على علم به واطلاع عليه .

ومهما يكن ، فاننا زيادة على تلك الوسائل التي ذكرنا ، لنا وسائل اخرى نجعلها فيما يلي :

الالوان ، كتسمية نوع من الحيات ، باسم الاسود ، والتسمية بأحمر نمود ، والاعتماد على اللون ، نجده حديثا في مثل البطاقة الرمادية والبطاقة الخضراء ، المعروفتين لكل سائق سيارة .

الاشكال ، كما هو معروف عند الموقتين ، في نحو نحو «الربع المجيب» و «الربع القنطر» وعند اصحاب الهندسة ، كالربعات والمثلثات ونحوهما ، وقد تتعاون الالوان والاشكال والاصوات ، كما حصل هذا في « المربع الاحمر » لاصحاب زيت لوسيسور . وقد ذكر النحاة امثلة لذلك ، في نحو طاق للضرب ، وطق لوقع الحجر ، وغب لوقع السيف ، وساق حر ، لطائر ، قال الشاعر :

وما هاج هذا الشوق الاحمامة
دعت ساق حر ترحة وترنما

وقد وقف فقهاء اللغة عند هذه الكلمة وقفة طويلة ، يمللون اشتقاقها .

اما النحاة ، فمقدوا لهذا باب حكاية الاصوات ، كما ان اللغويين القدامى والمحدثين ، والفلاسفة في القديم ايضا ، استرعى نظرهم ذلك ، فكان منهم من ادعى ان الالفاظ اللغوية كلها ، انما نشأت حكاية للاصوات ، وهذا لا يعيننا ، ان كان صحيحا ام لا ، بقدر ما نستفيد منه ، وهو كائن في اللغة ، ويمكن الاستفادة منه ، وقد رأينا في اللغات الحية ، شيئا من هذا ، كما في تسمية

وطوبى ، وغساق ، وغير هذه ، وان ادعى كونها
معربات .

وهذا ليس بدعا في اللغات عامة ، وعندنا كلمة
Gaz تعيش في كل مكان . ولا يعرف لها اصل البتة .

واذكر ان احدهم صنع شيئا ، فدخل عليه طفل
سأله عن اسم المصنوع . فسأله هذا الصانع : كيف
تسميه ؟ قال له . كذا ، فسماه بذلك . ولم يكن
لذلك الاسم اصل من اللغة ، وقد وضع احدهم
رسوما متكررة . على شكل زوايا حادة متسلسلة ،
ودعاها « كيكريكو » ورسم الى جانبه رسما آخر ،
عبارة عن سلسلة من انصاف دوائر ودعاها « امبو »
ولكنه وضع الاسمين ، ودعا تلاميذ من مختلف
الجنسيات واللغات وسألهم : اي الرسميين
« كيكريكو » فكلهم اجاب بأنه صاحب الزوايا الحادة
ولا شك انهم يدركون العلاقة بين تره مك التركية
والاضطراب و trouble والواقع ان الرسم له
صلة بما يعرف عند الرسامين ، باسم « كروكي » .
واعرف سيدة اخترعت كلمة « زوطوطو » فسارت
الكلمة في الوسط العائلي ومن الكلمات المخترعة
كلمة « روكوكو » Rococo وهو من اسماء
الزخارف ، وكلمة « كوداك » Kodak .

ولا شك ان هذه الكلمات ، سيزداد عليها ، ولن
تقف مكتوفة ، بل سيشتق منها فيما بعد ، شأنها
شان باقي الكلمات في العربية . سأل الضيف صاحب
المنزل عن طعام ، قد أتى عليه ، فأغاظ صاحب المنزل
الاب الفقير ، ما اسم هذا الطعام ؟ فأجابه بفيظ :
« الكجدور » فقال له : « على ش ما كجدرتوشي منو
بزاف ؟ » وهكذا اشتق من الكلمة الغربية عليه ، بمجرد
فهم مدلولها ، كما اعتقد ، وهي طبيعة العربية الام
الولود ، التي تمكن اولادها من حرية التصرف ،
فيشتقون من « الاستيك » ، فعل « استك » وغيره ،
كما يشتقون من da le المركبة في الاسبانية من
فعل أمر من صدر dar اي الاعطاء ، والمفعول
فكان التعبير dale اي اعطه ، ولكننا قلنا دالا
عليه ويدالي الى غير ذلك من كل ما يدخل الى
العربية من كلمات لها اصولها او مخترعة لا اصول
لها ، كما تقدمت امثلة له .

وبعدما تعرضنا للتعريب في مفهومه القديم
والحديث والوسائل التي تمكننا من سد الحاجة التي
نشعر بها حيال هذا العصر واختراعاته المتلاحقة ،
وما تتطلبه حضاراته المختلفة .

نلقي النظرة الاخيرة على ميدان التعريب ،
يكون بهذا تلخيص ما تقدم وتبسط بعض الجوانب
منه ، بأمثلة منها ما يعايشنا ويسايرنا في ثقافتنا
اليومية ، ونحن في مضمار الحياة ومعترك
الاحداث .

ولا شك ان اماننا مشاكل متنوعة في هذا
المضمار وذلك المعترك . فهناك العامية ، التي يجب
ان نأخذ بيدها ونسومو بها الى مستوى راق . بدل ان
ننزل اليها من هذا المستوى الراقي ، وهناك الفن
ومذاهبه ، كما قيل ، فهو يصور الحياة في لوحاته
الزاهية والشاحبة والقائمة ، برسومه وموسيقاه ،
التي أصبحت تتطور مع الايام بأدواتها واصداحها ،
اني جئت ذلك الرسم الذي لا يقتصر على المشاهد ،
بل اصبح يجاذب الكتابة ويرقى الى الرموز ، التي قد
تعجز عنها الكتابة نفسها ، فهو يسبح في عوالم خارقة
تلعادات وهو يخاطب او يحاول ان يخاطب وجدانات ،
بلفات لا تقوى عليها الكتابات والاصوات ، فهو حر
طليق لا يعترف حتى بسلطان النفسيات والمسجلات
للخبرات الرتبية ، في سهولة تتراد منه او اسلاس
ينقاد به ، انها الثورة التي يريدها الخيال الجامح
في اعلانها المكسرة لاصنامها . وهناك النحت ، لا يقل
في غاياته عن غايات الرسم ، وان كان طريقه وعرا ،
تكتفه الصخور عليه ان ينحت منها ، والاحوال عليه
ان يفوض فيها فهو على رعونته ، اصبح لا يقل عما
عليه الرسم في اطيافه واحلامه ، ووداعته وثوراته .

وهناك الكلام ، وهما كما يقول الشاعر :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما

جعل اللسان على الفؤاد دليلا

والفؤاد هذا قلب قلب ، يقبله من هو كل يوم
في شأن ، فعلى اللغة ان تسجل خطراته ، وان تضبط
دقاته ، وهي كما قال شوقي :

دقات قلب المرء قائلة له

ان الحياة دقائق وثوان

نعم ، انها دقائق وثوان ، ولكن هذه الدقائق
والثواني ، ما اعظم متطلباتها ، وما اشد ما يتحمل
الانسان من اماناتها ، وقد آبت السماوات والارض
والجبال ان يحملن هذه الامانات ، كما قال تعالى
« انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال
فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه

ويطبق على ذلك قواعد ما يشبه عنمه . كما عليه ان
يخترع اسما جديدا لهذا العلم ، والكيمائي عليه ان
يحلل عناصر ما في هذا الكون او الاكوان ، ويسمى
تلك العناصر بما يخترع لها من اسماء ، لان المدلولات
قد تكون غريبة عن هذا الكون ، وليس لهؤلاء ان
يقولوا العرائس تلك الافلاك :

صوني جمالك عنا اننا بشر
من التراب وهذا الجسم روحي
او فابتغي فلكا تأوينه ملكا
لم يتخذ شركا في العالم الفاني

لان هذه العرائس تأوي فعلا هذه الافلاك فلم
تتخذ لها شركا في عالم غير عوالمها ، ولكن الانسان
هتك استارها وكشف خدورها فتجنت مفاتنها
للابصار ، وانهرت لاسرارها البصائر ، فلا اقل للغة
من الوصف ولا مناص لها من الكشف ، بكل دقة وكل
تبيان .

ان هذا الاكتشاف الذي ستلوه اكتشافات ،
قد تطب آلاف الآلات والادوات ، فعلى اللغة ان
تسمي كل ذلك بدقة وتفهمه للافهام وليس بقادر على
هذا الا اهل العلم انفسهم ، وقد وضعت اللغة امامهم
وبين ايديهم ما تملك من ادوات التعبير ، ووسائله
كالاشتقاق من الحقيقة والمجاز والكتشيه وحكاية
الاصوات والنحت والتخصيص والتعميم وكالاستعارة
من اللغات بعضها من بعض وكالاشتقاق للكلمات
وخلقها من العدم ، اذا لم نجد في هذا الوجود ما
نستفيد من لونه او شكله او رائحته او حركته او ما
الى ذلك او مما يسعنا بمماثلة ما ولو في الوهم او
الخيال الذي يساورنا او يخلف لنا من اساطيره
وخرافاته .

لقد سمي آباؤنا سائل الكلونيا، باسم «مسيكو»
فاسمفتهم الرائحة ، واخترع « شيكبير » اسم
« دولار » قبل ان يكون دولار وسمى آباؤنا ايضا
الدراجة ، باسم « عود الريح » معتمدين على
السرعة في الحركة ، وكان هذا تلقائيا منهم ووفقوا
كل التوفيق (وفي الفارسية « دوجرخه » اي
فلكتان) اذن فالعزم اولا هو ما نتذرع به ، في
مواجهة التعريب ، وفي القديم واجه القوم ، فما
وهتوا ولا ضعفوا ، وحلوا مشاكلهم في تدوين
الدواوين ، ونقل العلوم المختلفة والاداب المتباينة
والعقائد المتضاربة الى لغة الضاد ، ولم يكن اولئك
اقدر منا في العربية ولا افهم منا لتلك العلوم

كن ظوما جهولا « هو ظلوم عليه ان ينصف نفسه
وينصف اناس . وهو جهول عليه ان يعلم ويتعلم ما
ينبي رغبات الافئدة في هوائها . والعقول في مناطها ،
والاجسام في علها واسقامها ، وصحتها وملاذها .
من المشاهد والاذواق والشاعر والاسماع .

فهذا فن الكلام في آدابه ، التي تتولد وتتفاعل
في الوانها وامشاجها ومعطياتها ومقاصدها ، وجميعها
في تطور مطرد وفي انفصال هلامي مستمر . وفي
استقلال بيء اصحابها واطانها ومجتمعاتها وافكارها
وثقافتها ، بعد اللغات ، وقد اصبحت تعد بالالاف . .
واسبح على الانسان ان يفهم كل شيء ، وقد واجه في
حياته كل شيء ، فخيمت عليه الظلال من كل مكان ،
ووجهت عليه الانوار والنيان ، فعلى هذه اللغة ان
تصمد بكل شجاعة ، وعليها ان تقوم برسالتها ، بكل
عزم وقوة ، فتمثل دورها في جميع المحافل خير تمثيل
ان كانت على قيد الحياة .

ومن وراء هذا كله الفلسفة التي اصبحت من
هذا الجيل مطالبة بالجديد ، والا فليها ان تنزوي
من مسرح الحياة الجديد في جميع فروعها ، حتى
« الميتافيزيقا » نفسها ، فمهماتها صعبة في هذا
العالم الصعب المعقد ، الذي لا يرحم احدا ولا يحجم
عن الاخذ بتلابيب العلماء العظام والفلاسفة الكبار ،
فعلهم ان يفهموا ويسطوا وعليهم ان يقنعوا العقول
وهي في زيفاتها وصراعها للايكترونية العملاق .

وهذا العلم لم يبق بالرتابة او القداسة التي
كان عليها ، فهو يطارد مطاردة لا هوادة فيها ، منذ
بداية هذا القرن ، واشتدت المطاردة اثناء الحرب
الاخيرة ، وازدادت اشتدادا بعدها ، وصارت
الدنيا تميم بها ، واذا بالافلاك والنيان تناجي
الانسان فيطالب العالم بان يحمله الى هذه الكواكب
والافلاك ، فلا يجد المسكين مناصا من ان يستجيب
لمطالب الانسان الجبار ، فيبني له المراكب الفضائية
ويزوده فيها بما يضمن له السلامة ولا يحرمه مع هذا
من الاتصال بالعالم الارضي لحظة ، ويتكفل بالعودة
به اليه بعد ان يحط رحاله بتلك الكواكب ويطوف
في ارجائها ويحمل من متاعها ويستعمر من بقاعها ،
فلا يلبث بعد عودته ان يطالب العلم بدراسة هذه
العوالم العليا .

فالجغرافي عليه ان يخترع ما يشبه علمه لهذه
الكواكب ، بل عليه ان يخترع اسما خاصا لهذا العلم ،
والجيولوجي عليه ان يدرس طبقات هذه الكواكب ،

والادب وغيرها ، بل كانوا دوننا في ذلك ولا شك ،
الا انهم كانوا يتوفرون على شيء لا تتوفر عليه ، وهو
الشعور بالهزة والكرامة وانهم سادة يجب ان يخضعوا
لهم ، لا ان يخضعوا لغيرهم ، وبذلك اخضعوا
لغتهم ، في يسر ، كل ما وصلوا اليه او اتصل
بهم .

هذا هو موقفنا الذي يجب ان نتفقه ازاء هذا
التعريب ، وهو موقف ، لا محالة . يدعو الى
انتخض . بعد تلك العزيمة ، والى النهل من
العربية والتعمق فيها . حتى يمكن كل عالم او صانع
او مفن او متفلسف ، ان يتولى ما يراوله او يعانیه
بالتعريب .

وعليه ، فالطبيب يتولى تعريب ما يتصل بطبه .
والمهندس يتولى ما يتصل بهندسته ، والمتفلسف
والمفن ، كل لما يتصل بهأويته والصانع كذلك يعرب
ما يتصل بصناعته ، وقد مكناه من ذلك بالتعليم ،
الذي يسير في ركبته هذا التعريب .

ولا نهمل مع هذا استشارة الشعب ، بل نعود
الى قاموسه الحي ، الذي يمدنا بنحو « عود الريح »
و « ميكو » و « والصدفة » و « الكسكاس »
و « غويلة » و « ترابية » ، وغير هذه من الكلمات
التي تخضع للعربية وقوانينها ، كما نتلقى منهم من
غير مشقة ما عربوه هم مثل يكمي ، من Quemar
الاسبانية والكرو من Cigarro الاسبانية ايضا الا
اننا نخضع الكلمة لقانون العربية ، فلا نتركها لمتنها
هذا ، وفي آخرها واو قبها ضمة لازمة ، بل تختم
بهاء مثلا ، كما فعلنا في ينيه ويلييه وسيبويه ،
وسميت الصورة السالبة باسم « عقرية » في عامية
الشرق ، فلنا ان نستعير حتى من العامية .

كما نستعين برصيدنا في الخارج فالاسبانية
اخذت كلمة « كحال » Oculista لطبيب العيون
وعنها اخذتها باقي اللغات الاوربية كما اخذتها مباشرة
الفارسية والتركية . فلماذا لا نستعملها نحن العرب
فنجاري اللغات الحية التي استعارت منا ولنا
الفضل عليهم ؟ ربما نائف من هذا ، فلم لم يائف
غيرنا ان يسموا طبيب الاسنان بالسنني Dentiste
كما في اللغات الاوربية والتركية ؟ وعلينا ان نجاري
غيرنا في ذلك ، وقد استعملت هذه التسمية « دنيلة »
في الاندلس وان كانت في الاحتفال يبدو الاسنان ،
وادعى بعضهم ان لها اصلا في الفصحى ، وتوقف
الزبيدي هنا .

والفارسية ثم التركية سمت الهيدروجين
« مولد الماء » كما تقدم ، واستعملت التركية
« تهاكة » بدل « خطر » ، والاسبانية « انبوب »
Embubo بدل قمع . وهكذا نجد الفاظا نستفيد
من وجودها في الخارج او نختارها منه .

وهذا عمل يحتاج الى تعبئة عامة ، وكفاح
يسارك فيه الجميع : الحكومة بتدخلها في تعريب
انلاقات والتذاكر واللوائح والصحافة باختيار الكتب
والمثقفين حقا والمتخصصين في العربية تخصصا
عميقا . فلا تترك الصحافة في ايدي من لا يحسن
لغتها من المتطفلين عليها ، والتمثيل المسرحي كذلك
له رسالة في هذا التعريب ، فعليه ان يختار
الموضوعات التي يستسيقها الشعب حتى يقبل عليها
في لغتها ، فتعمل فيه بطريق الإيحاء ، وكذلك
التمثيل الخيالي ومسرحه في الواقع أقسح من غيره،
والأغاني العربية وحتى الشعبية تخدم كذلك التعريب،
اذا احسنا استعمالها واخترنا اصواتها الجميلة
والحانها السجية واعدناها بالموسيقى العذبة
المؤثرة والاذاعة والتلفزة من اقوى دعائم هذه التعريب،
فهي الصوت الذي يصحنا ويمسنا والمشاهد التي
تحيينا وتسامرنا وتناجينا .

اما المدرسة والكتاب ففني امرهما عن البيان،
ولا بد من الاستمرار والتذكير ، فقد كنت كتبت في
كون العمالة بالكسر ، فكان لهذا صدها في اذاعة
تطوان وفاس ولكن التذكير بهذا انقطع فعاد الناس
الى العمالة بالفتح وعدت انا معهم الى هذا الضلال
على علم به مني .

واخيرا ، لقد تركنا المفردات وما يمكن ان
يستفيد منه التعريب في حركته الدأبة بنشاط
هذه الاحياء البشرية وبقي علينا ان نوجه العناية الى
المفردات في تركيبها ، او تعريب الاساليب ، ان
صح هذا التعريب .

وموقفنا هاهنا لن يطول ، لانه لن يكون معربا
بحق وحقيقة ، فالعربية قد انتهت الى تراكيبها ،
وليس في الامكان ابداع مما كان في بنيتها ، وارتفعت
الاقلام عن تسطيرها وجفت الصحف بما فيها .

الا ان هناك ، جوانب لا تمت الى الخلق والابداع
من جديد ، بل هي في الواقع محافظة على ذلك
الكيان اللغوي الذي هو بالنسبة اليها القلعة المتيدة
والحصن الحصين ، الذي يجب الدفاع عنه الى آخر
قطرة من دمائه هذه اللغة الابية المستمينة الصامدة .

ان العربية كما قلنا ، كريمة كأصحابها مضياف
تكرم نزلاءها ، فوجود مائات او آلاف من الكلمات
الدخيلة فيها لا يهدد حوزتها ، بل بالعكس يزيد
قوة ويكسبها منعة ، في مواجهات كل الطواريء .

ولكن العبث بالنظام المتبع فيها ، واحداث
الفوضى في مجتمعها ، هو الذي لا يقبله بحال . وهو
الذي يجب الا تقبله ، كما لا يقبله اي عرف من
اعراف اللغات قاطبة ، وهي لغات لها كرامتها ونها
وجودها الازلي والخالد خلود الدهر .

ونعود فنقول ، اننا لن نزيل في هذا التعريب
التركيبى . وسنقف وقفة قصيرة : عند بعض
الاعراض ولا نقول الامراض التي طرات على هذه
العربية في عصرنا المريض برجاله ومثله العليا .

فاول تلك الاعراض ، بل اول تلك الامراض ،
مع العذرة ، مرض حل بمستقبل هذه اللغة ، نعم ،
حل بمستقبلها مع الاسف ، ولكنه حل بمستقبلها
السايي ، لا الايجابي ، احسن الحظ ، والله الحمد
على كل حال .

من العلوم ، ان الافعال في اللغات ، هي مفاتيح
تلك اللغات ، بل هي حياتها التي بها يكون حيوانها ،
والحيوان في الواقع ، ما هو الا الحركة الجياشة ،
كالفيضان والغليان والثوران والجيشان نفسه ، وبهذا
الاعتبار ، قال تعالى : « وان الدار الآخرة لهي
الحيوان لو كانوا يعلمون » وبذلك تكون هذه الكلمة
في مدلولها الآن قد انحرفت عما خلقت لاجله .

وهذا لا يهمننا الآن ، فقد انتهينا من المفردات ،
كما قلنا وعلينا ان نعالج مستقبل هذه اللغة في افعالها
السلبية ، وهي التي تحتاج الى علاج ناجع وسريع .

نقول سوف نفعل ، كما نقول سنفعل ، وهذا
الاخير مختزل من الاول ، وكان قد عمل فيه هذا
الاختزال ، فقول سوف افعل ، وسف افعل ، وأخيرا
سافعل ، فوقع الاختصار على حرف السين
وحده ، واهمل الاختصار عليه مع الواو او الفاء ،
وحافظ على الام الرووم « سوف افعل » وهذا
جميل في هذه العربية التي تتجدد وتتطور ، ولكنها
لا تتنكر للماضي ، ولا تعق الامومة والابوة .

هذا هو الفعل المستقبل الموجب في العربية ،
سلمه الله من كل بلاء ، ودرا عنه كل اداء ، فبقي
كيوم ولدته امه على فراش الصون والعفاف

ولكن المستقبل المنفي وقع فيه من المصائب ما
لا عين رأت ولا اذن سمعت بمثله في غير هذه اللغة
الشريفة نسمع دائما ونقرأ دائما ، وخصوصا في
صحافتنا المسكينة هذا التعبير :

« سوف لا يأتي فلان » ونسمع ونقرأ في
صحافتنا المنكوبة ، ما هو افظع من هذا وادهى ...
نسمع ونقرأ :

« سوف لن يأتي فلان » ، ، فض الله فم من
كان اول الناطقين ، بتلك العبارة المسوخة ، وهذه
العبارة الملعونة من السماء ، لان الله ما انزل بها
من سلطان ، ولان كتابه الكريم قال : « لن تراني ولكن
انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني »
فعلمنا كيف نعبر بالمستقبل المنفي « لن تراني » وقابل
به المستقبل المثبت « فسوف تراني » .

اذن فاداة الاستقبال في الفعل العربي المنفي ،
هي الاداة « لن » فنقول « لن يسافر فلان » في
المستقبل من الزمان ، ولا نقول « سوف لا يسافر » ،
ومن المخجل ان تستعمل هذه العبارة ، في التمثيلية
التي جابت من مصر فعرضت في تلفزتنا بمناسبة
المولد الشريف ، وهي تحكي حوارا كان على عهد
الرسول ، عليه الصلاة والسلام .

وافظع من هذه العبارة ، هو « سوف لن
يسافر » ، فتلك جهالة جهلاء ، وعدم اكتراث باللغة ،
التي ظن اصحابها اليوم ، كأنهم قيل لهم فيها :
« تكلموا كيف شئتم » ، وصدق الشاعر :

رايت الحلم دل علي قومي

وقد يستجهل الرجل الحليم

ان مثل هذا التعبير انما هو استعمار انجليزي
تعدى الى اللغة بعد ان اعتدى على اصحابها ، وما
ابغضه من استعمار ، تخلص منه الناس ، ولم يتخلصوا
من ادوائه العديدة ، التي منها هذا الداء الوبيل ، فقد
تلقي احد الكتاب الطفيليين ، وما اكثرهم واسمجهم ،
مثل هذ التعبير الانجليزي I shall not come
فقد عليه عربيته المعذبة ، في قبضته الاثيمة ، فقال :
« انا سوف لا آتي » او « سوف لن آتي » ولو آمن
جدا في التعبير الذي سحره ، لقال : « انا سوف لا
آتيان » هكذا ، وهو تركيب لا يوجد الا في
الانجليزية والالمانية بهذا النسج وهذا الترتيب ، ولا
نعرف له مثيلا في لغة اخرى غيرهما ، وهكذا نجد

العبارة المذكورة . تكون في الالمانية

ich werde nicht kommen

سواء بسواء ، فتجعل اداة النفي تالية لاداة الاستقبال ، كما في الانجليزية وفي تعبيرنا هذا المسوخ « سوف لا » او « سوف لن » كما تقدم ، بينما الفارسية تدخل اداة النفي على اداة الاستقبال ، ولا تجعلها تالية لها ، فتقول في نفس الجملة « من نخواهم آمد » فالنون نفي وتخالف هذه جميعا التركية ، التي تأتي بالمصدر المرخم وتلحق به اداة النفي ، ثم تأتي اداة الاستقبال فتقول « بن كله ميه جفم » ويقتى بعد هذا اللغات المتفرعة من اللاتينية ، كالاسبانية ، فانها تأتي بأداة النفي ثم المصدر المرخم ثم اداة الاستقبال Yo no vendre

وبلاحظ ان هذه اللغات - ما عدا الانجليزية - تصل ضمائر الفواعل او علاماتها ، بأداة الاستقبال ، وانها جميعا تستعين بالمصادر ، في صوغ فعل الاستقبال ، الا ان الانجليزية وليس لها مصدر غير مؤول ، تحذف الحرف الموصولي v ، والالمانية تأتي بالمصدر كما هو ، بينما الفارسية والتركية والاسبانية ترخم هذا المصدر عموما .

ثم انها تتحد في كونها لها اداة تدخل عليها او تلحق بها اداة النفي ، وهي واحدة الا في الانجليزية ، فتختلف بحسب التكلم وغيره ، فهي للتكلم كما رأينا shall ولغيره will وقد يتبادلان قصد التاكيد كما يقول شيلي Our breath shall intermix وربما استعمل هذا الفعل في معناه الاصلي ، اذ لا مهمة له في الاستقبال « We shall become the same. We shall be one spirit »

وكذلك العربية لها اداتان ، واحدة في الاثبات ، وهي « سوف » او ما اختزل منها ، وواحدة في النفي وهي « لن » لا غيرها .

ولعل « سوف » كانت ظرف زمان في اصلها ، بنيت على الفتح للازمتها الظرفية ، وان كان المستشرق Bergstraesse يرى انها مستعارة من الآرامية Saupa ومعنى هذه « النهاية » او « الغاية » ، فكان معنى « سوف افعل » اني افعل في النهاية والغاية .

يقول علماء اللسان ، ان اللغات السامية - ما عدا الاكادية منها - ليس لها الا زمانان ، ماضي قديم انتهى ، وغيره لم ينته ويشمل الامر والحال والاستقبال .

فكون العربية استعانت بسوف ظرف زمان ، او saupa الآرامية على تعيين مستقبلها ، هذا شيء ليس بغريب في اللغات فالانجليزية ، في غير التكلم خاصة ، والفارسية عموما ، استعانت بفعل الارادة ، الذي ما زال بهما يستقل بنفسه احيانا ، فكان الاصل في « سيفعل » مثلا هكذا « يريد الفعل » وفي التكلم استعانت الانجليزية ، بكون الفعل ملزما ، فكان الاصل « سأفعل » هكذا « يلزمني الفعل » فهو الفاعل على الحقيقة ، وفي الالمانية استعين بفعل اصبح ، فكان الاصل في التعبير السابق هكذا « انا لا اصبح اتيانا » ويستعمل كذلك مستقلا وهذه الاستعانة نجدها في نحو «غادي» او «ماشي» او «خصني» او «نحب» التي تستعمل بالعامية كما يستعمل الرواح والود بالشرق

وليس لنا اداة لا تؤدي الا هذا الاستقبال المجرد ، سوى الاداة التركية والاداة الاسبانية الآتية من اللاتينية في غير العامية هذه مقارنات في سوف مثبتة في العربية ، ومطلقة في غيرها .

وبقيت « لن » فما اصلها ؟

اختلف فيها ، فمنهم من يراها خلقت كذلك ، ومنهم من يرى ان النون ، حلت محل الالف من « لا » للتاكيد ، ومنهم من يرى ان اصلها « لان » فكان الاصل في « فلان لن يفعل » فلان لا ان يفعل ، فهي تفهم كون فعل لن يقع في الاستقبال .

ومهما يكن فجميع هذه اللغات - ما عدا التركية - استعملت النون للنفي هنا ، اما التركية فالميم وهي أخت النون التي طفت عليها تماما بالفارسية .. والنتيجة ان الفعل المستقبل في العربية ، اذا نفي يكون بلن وحدها ، كما قال الشاعر :

هي الشمس مطلعها في السما

فمز الفؤاد عزاء جميلا

فلن تستطيع اليها الصمودا

وان تستطيع اليك النزولا

ومن قبل بثلاث وعشرين سنة كتبت في اداة الاستقبال ، فاهتمت بذلك مجلة الروس البيض بتونس وأبدته في مجلتها « Ibla »